﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس: 57]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من تمامِ دلائلِ ألوهيَّته سبحانه إنـزالُ خيرِ كتبهِ على خاتمِ رسلهِ رحمةً بخلقه

في مناسبة الآية لما قبلها ثلاثةُ أوجه:

الأول: لَمّا ذكر تعالى الأدلَّة على الألوهيَّة والوحدانيَّة والقدرة بقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾... ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ ذكر الدلائل الدّالَّةَ على صحَّة النُّبوَّة والطَّريقَ المؤدّي إليها وهو القُرْآنُ المتَّصف بهذه الأوصاف الشَّريفة بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

الثاني: بعد أنْ ذكر سبحانه الأدلَّة على أسس الدين الثَّلاثة، وهي: الوحدانيَّة والرسالة والبعث؛ قفّى على ذلك بذكر التشريع العملي، وهو القرآن الكريم، وقد أجمل مقاصد هذا التشريع في أمور أربعة بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

الثالث: بعد أن حذَّر الله المشركين من غوائل الضَّلال بما تلا عليهم من القوارع بقوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ﴾.... ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾؛ رجع إلى استمالتهم نحو الحقِّ، واستنزالهم إلى قبوله بذكر أنَّ جميع ذلك مسوقٌ لمصالحهم، فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/74.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 11/122.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/131.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾: الواو والعين والظاء كلمة واحدة، فالوَعْظ: التخويف، والعِظَة الاسم منه، والموعظة: النُصح والتذكير بالعواقب[1]، وقيل: الوَعْظُ: التذكير بالخير فيما يرقُّ له القلب[2]، وقيل: الوعظ: زجرٌ مقترنٌ بتخويف، وَعَظَهُ يَعِظُهُ: ذكَّرَهُ بما يُلين قلبه من الثواب والعقاب، والاتِّعاظ: قبول الموعظة[3]، وكأنَّ الواعظَ يذكِّر، وينبِّه غيرَهُ إلى عواقب ما يفعله، أو ما هو مُقدم عليه ليتوقَّف عنه، ويظهر، وأنَّ الأصل في الوعظ أنَّه خاصٌّ بالزجر عمّا له عواقب سيئة، ثمَّ عُمِّم في الحضِّ على ما له ثواب[4].

والمراد بـ ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾ في الآية: ذكرى تذكُّركم عقاب الله وتخوُّفكم وعيده[5]، أو وصيَّة بالحقِّ والخير، واجتناب الباطل والشرِّ، بأساليب الترغيب والترهيب التي يرقُّ لها القلب، فتبعث على الفعل أو الترك[6].

2) ﴿وَشِفَآءٌ﴾: الشين والفاء والحرف المعتلُّ يدلُّ على الإشراف على الشيء؛ يقال: أشفى على الشيء؛ إذا أشرفَ عليه، وسُمّي الشفاء شفاءً؛ لغلبته للمرض وإشفائه عليه[7]، والشفاءُ: معروف، وهو البرءُ من السَّقم، وتخلُّص البدنِ من المرض، وشفى الله المريض: عافاه، وأبرأه، وأشفاهُ: وهبَ له شفاءً من الدّاء، واستشفى فلانٌ: طلبَ الشفاء[8].

ومعنى ﴿وَشِفَآءٌ﴾ في الآية: عامٌّ يشملُ الشفاء من مرضِ البدن، وأمراض العقيدة والنَّفس، وعمى القلب، فالقرآن فيه دواء وكشفٌ، وإزالةٌ لكلِّ ما يصيب الصدور من الأسقام العارضة من جهل، وحسد، وحقد، وتباغض، ووساوس الشيطان، وغيرها من الأسقام[9].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (وعظ).
(2) الراغب، المفردات، ص: 876.
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (وعظ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وعظ).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/104.
(6) المراغي، تفسير المراغي: 11/122.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفي).
(8) الخليل، العين، والفيومي، المصباح المنير، والزَّبيدي، تاج العروس: (شفي).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 15/105، والبغوي، معالم التنزيل: 4/138، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3595.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

القرآنُ داعٍ إلى كلِّ خيرٍ وصلاحٍ وهو نعمةٌ لمن انتفعَ به من المؤمنين

يوجِّه الله سبحانه نداءً إلى النّاس كافَّة، فيقول: يا أيُّها النّاس، قد أتاكم من ربِّكم قرآنٌ داعٍ إلى كلِّ خير وصلاح؛ يأمركم ويزجركم، ويرقِّق قلوبكم، وهو دواء للقلوب من الشَّهوات والشُّبهات، يشفي من جميع الأمراض، ومنها الجهل، والشكُّ، والنفاق، والغيُّ، وهو هدايةٌ ورشدٌ لمن اتَّبعه من الخلق، فينجيه من الهلاك، وهو رحمةٌ ونعمةٌ يحصل به الخير والإحسان والثواب للمؤمنين؛ لأنَّهم هم الذين انتفعوا بالقرآن دون غيرهم الذين حَرموا أنفسهم من الانتفاع بموعظة القرآن[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

غرضُ النِّداءِ وحرفِ التَّنبيه في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

النداءُ بأداةِ البعيد مراعاةٌ لمقامِ الرُّبوبيَّة وإشارةٌ لبُعد المشركين الغافلين

نادى الله النّاس بأداةِ النداء التي تُستعمل للمنادى البعيد (يا) في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ لغرضين:

الأوَّل: مراعاة مقام الرُّبوبيَّة الرفيع، في الأمر والنهي والتوجيه؛ إذْ هو سبحانه العليُّ الأعلى، وهذا يُلحظ في خطاب الله لعباده في القرآن أنَّه يُنزِّلُهُم مَنْزِلَة البعيدين عنه، فيناديهم بحرف النّداء (يا)، مع أنَّه أقربُ إليهم من حبْلِ الوريد[2].

الآخر: الإشارة إلى غفلتهم وانشغالهم بالدنيا، وبُعْدِهم عن الرَّحمة، والتوفيق والهداية، وتشديدِ التَّهديد والمبالغةِ في الوعيد، فهم بمنزلةِ البعيد الذي يحتاج إلى أداة النِّداء التي يُنادى بها البعيد، وعليهم أنْ يُصغوا لما يُنادى به عليهم، هذا إذا كان المقصود من النّاس في الآية المشركين بناءً على الأكثر في خطاب القرآن بـ يا أيُّها النّاس.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/193، والخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/448.
(2) حسن، بلاغة اللغة: 1/245.

كما أنَّ النداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ يشتمل على: (أيّ) وهي وصلةٌ إلى نداء ما فيه (أل)[1]، وهي نكرةٌ مقصودة، تفيدُ التدرُّجَ من الإبهام إلى التوضيح؛ تشويقًا لما سيُلقى من مضمون الكلام، وهو هنا الموعظة العظيمة.

ويشتمل على: (ها) حرفِ تَنبيهٍ، وهو لازمٌ لأداة (أيّ)، ويفصل بـ(ها) بين (أيّ) في النداء، وبين المنادى المرفوع بعده، ويفيدُ هنا المشاركةَ مع (يا) و(أي) في التَّنبيهِ والتأكيد على أهمِّيَّة المنادى به، وهي الموعظة الجامعة لكلِّ أوصاف الكمال.

دلالةُ استعمالِ لفظِ النّاس: ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

لفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يحتمل معنيين:

خطابٌ تعريفيٌّ لجميعِ النّاس بشأنِ القرآن أو ترغيبٌ وترهيبٌ للمشركين

الأول: جميع النّاس، وتكون (أل) التعريف في لفظ النّاس جنسيَّةً، والخطاب يشمل جميع النّاس[2]، وبناء على ذلك تكون الآية استئنافًا أو اعتراضًا، ويجوز أنْ يكونَ لابتداءِ غرضٍ جديدٍ، وهو خطابُ جميع النّاس بالتَّعريف بشأن القرآن وهديه، بعد أنْ كان الكلام في جدال المشركين والاحتجاج عليهم بإعجاز القرآن على أنَّه من عند الله، وأنَّ الآتي به صادق فيما جاء به من تهديدهم وتخويفهم من عاقبة تكذيب الأمم رسلها، وما ذيَّل به ذلك من الوعيد وتحقيق ما توعَّدوا به، وممّا يؤكِّد كون الخطاب لجميع النّاس أنَّه لم يأتِ فيه ما يقتضي توجيهه لخصوص المشركين من ضمائر تعود إليهم، أو أوصاف لهم، أو صلات موصول، والمعنى: أنَّ القرآنَ موعظةٌ لجميع النّاس، وإنَّما انتفعَ بموعظته المؤمنون، فاهتدوا، وكان لهم رحمة.

الآخر: المشركون، وتكون (أل) التعريف عهديَّةً، ووَجْهُ هذا

(1) لأنَّ (يا) لا تدخل عليها في غير يا الله إلا شذوذًا.

(2) عدَّهُ الخازن هو الأصحُّ، وذكر أنَّه اختيار الطبري، ينظر: الخازن، لباب التأويل: 3/194.

القول: هو ملاحظةُ ارتباط الآية بما قبلها؛ إذ بعضه في بيان أحوال قريش[1]، وكون الأكثر في خطاب القرآن بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هو للمشركين، وبناء على ذلك يكون ذكر الثناء على القرآن بأنَّه هدًى ورحمةٌ للمؤمنين إدماجًا[2] وتسجيلًا على المشركين بأنَّهم حَرموا أنفسهم الانتفاعَ بموعظة القرآن وشفائه لِما في الصدور، فانتفع المؤمنون بذلك[3].

نكتةُ استعمالِ حرفِ التَّحقيق ﴿قَدْ﴾:

أصـولُ كـمـالِ القـرآن محقَّقةٌ لا ريبَ فيها

افتتح البيانُ الإلهيُّ الكلام بـ﴿قَدْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾ لتأكيده؛ لأنَّ في المخاطبين كثيرًا ممَّن ينكرُ هذه الأوصاف للقرآن، والتي تُعدُّ أصولَ كمالِه وخصائصه، وهي: أنَّه موعظةٌ، وأنَّه شفاءٌ لما في الصدور، وأنَّه هدًى، وأنَّه رحمة للمؤمنين[4].

بلاغةُ اختيارِ مفردةِ المجيء: ﴿جَآءَتْكُم﴾:

المـجـيءُ محقَّقٌ بعيدٌ عن عوامِلِ النقص والتعبيرُ بـه أنسبُ لمقامِ القرآن العظيم

آثرَ البيانُ القرآنيُّ مفردةَ ﴿جَآءَتْكُم﴾ دون الإتيان في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾؛ لأمور منها:

الأوَّل: كون المجيء أعمَّ وأوسع دلالةً من الإتيان، فهو تمام الإتيان؛ فإنَّ الإتيان إذا اكتمل وبلغ مقصده من مكان أو زمان، أو شخص أصبح مجيئًا، وكلُّ مجيءٍ إتيانٌ، وليس كلُّ إتيانٍ مجيئًا.

الثّاني: كون المجيء يُستعمل فيما ثَقُلَ وعَظُمَ شأنه، أمّا الإتيان؛ فهو مجيءٌ بسهولة[5]، ويعبَّر به عن سهولة الفعل وسرعته، فتناسبَ التعبير هنا بالفعل ﴿جَآءَتْكُم﴾ مع عِظَمِ القرآن وما جاء به.

الثّالث: كون المجيء أنسبَ للسياق؛ إذ المجيء يُقال اعتبارًا

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/495.
(2) الإدماج: أن يُضمَّنَ كلامٌ سِيق لمعنى آخر.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/200 - 201.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/201.
(5) الراغب، المفردات: (أتى).

بالحصول، أمّا الإتيان؛ فقد يُقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول[1]، والسياق سياقُ تحقُّق؛ فالقرآن قد نزل على رسوله ﷺ، وكونه موعظةً وشفاءً وهدى ورحمة للمؤمنين أمرٌ واقعٌ بعيد عن عوامل النقص، والمجيء هو محقَّقٌ بعيدٌ عن عوامل النقص من نفيٍ أو شرطٍ أو عمومٍ بلا تفاصيل، أو استفهامٍ، أو رجاءٍ، أو احتمالٍ أو غير ذلك.

الرّابع: السّياقُ الواردُ فيه المجيءُ هو سياقُ خطابٍ وحوار، ولذا عُبِّرَ بالمجيء الذي لم يأتِ في القرآن إلا بصيغة الماضي بما يفيد الحدوث الفعلي، وتحقُّق الوقوع.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة في: ﴿جَآءَتْكُم﴾:

سماعُ الموعظةِ محقَّقٌ ودليلُه مجيئُها

في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾ شبَّهتِ الآيةُ سماعَ الموعظةِ بمجيئِها، فإنَّ الموعظةَ تُسمع، وصرَّح بالمشبَّه به، وهو المجيءُ على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، والاستعارةُ أبلغ من الحقيقةِ؛ لأنَّها تجعل السَّماعَ أمرًا متحقِّقًا للمخاطَبين، وليس مجرَّد صوتٍ عابرٍ قد يفوت الكثيرين؛ ففيه إقامةٌ للحجَّةِ، وتسجيلٌ للبرهانِ، في كونِ من وصلتهم الموعظة هم في عدادِ المدعوِّين.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّة في: ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾:

الموعظةُ كائنٌ متحرِّكٌ مؤثِّرٌ فيمَن تجيئه

شبَّه البيانُ الإلهيُّ الموعظة في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾ بشخصٍ يجيء، فحذف (المشبَّه به)، وأبقى شيئًا من لوازمه وهو المجيء، فالاستعارةُ مكنيَّةٌ أصليَّة.

إذ من الممكن أن يقول: (قد جاءكم الرسول بموعظة)، ولكنه ترك ذلك؛ لأنَّ في تعبيره بالاستعارة تصويرًا للموعظة، وكأنَّها قد تجسَّدت، وصار لها مجيء، رغم أنَّ الموعظة هي كلمات، وأراد الله

(1) الراغب، المفردات: (جاء).

تعالى بذلك أن يعطي للموعظة صورةَ الحركة التي تؤثِّر، وتحضُّ على الإيمان[1]، فالاستعارةُ أبلغ من الحقيقةِ؛ لما فيها من تجسيد المعاني وتصويرِ المشهد.

سرُّ اختيارِ الموعظةِ بدلًا من الهدايةِ:

من كمالِ بلاغةِ الخطابِ أن يجمع بين تخويفٍ وترقيقٍ يحملان على الامتثال

عبَّر القرآنُ بلفظ الموعظة بدلًا من لفظ الهداية أو الوصيَّة في قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾، رغم أنَّها تشترك في معنى النُّصح وإرادة الخير بالطرف الآخر؛ لِما تتميَّز به مفردة الموعظة من الزجر المقترن بالتخويف، والتذكير من سوء عاقبة من لم يعمل بها، بينما الهداية تكون بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب، وإلى الغاية المرجوَّة.

أي: آثر البيان القرآنيُّ الموعظةَ؛ لكونها أوسعَ دلالةً على المطلوب، فهي تجمع بين "تخويف وترقيق يحملان على الامتثال"[2].

إضافة إلى أنَّ لفظَ الهدى المذكورَ في الآيةِ قد اشتملَ على معنى الهداية، فلا حاجة إلى تكرار ذكرِه بدون فائدة.

وكذلك عبَّر بالموعظة دون الوصيَّة؛ لأنَّ الموعظة هي وصيَّة بالخير، والبعد عن الشرِّ بلفظ مؤثِّر، أي: هي أوسع دلالة من الوصيَّة التي قد تكون بلفظ مؤثِّر، وقد تكون بلفظ غير مؤثِّر، وقد تكون قصيرة، وقد تكون طويلة، أمّا الموعظة؛ فلا تكون إلّا بكلام مؤثِّر، وتكون بعيون المسائل، وفيها إشارة إلى شروط المتحدِّث بها، فهي ثقيلة على الموعوظ، ولا تُتقبَّل إلا ممَّن يُجيد التأثير بجمال الكلمة وصدق الأداء[3].

نكتةُ توالي الألفاظ على صيغة التَّنكيرِ في الآية:

التنكير في المفردات القرآنيَّة التي وردت في الآية وهي: ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5999.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/108.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6000.

عطاءاتُ القرآنِ عظيمةٌ في كتابٍ عظيمٍ من ربٍ عظيمٍ سبحانه

و﴿وَشِفَآءٌ﴾ و﴿وَهُدًى﴾ و﴿وَرَحْمَةٌ﴾ يفيدُ التعظيم والتفخيمَ[1] والتكثير، فالموعظة والشفاء والهداية والرحمة من مالكِ أمر النّاس، ومربّيهم هي عظيمةٌ لا يُحَدُّ حدُّها، ولا يُقدَّر قدرُها، ففضلُها كبيرٌ، وأثرُها عظيمٌ، وخيرُها لا ينقطعُ، وكذلك أفاد التَّنكير العمومَ؛ إذ إنَّ موعظةَ القرآنِ عامَّةٌ في كلِّ ما يحتاجُه النّاس في دينِهم، وكذلك شفاءُ القرآن وهداه ورحمته، فهي تعمُّ كلَّ الأحوال، ولو عرَّف، فقال: (قد جاءتكم الموعظة)؛ لبُحث عن المقصودِ بها، وأنَّها موعظةٌ لها دلالةٌ خاصَّة، وهذا غير مرادٍ.

غرض التَّعبير بالمصدر الميمي ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾:

المصدرُ الميمي أقوى دلالةً وآكدُ من المصدر القياسي

عبَّر القرآن بالمصدر الميمي ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾ دون المصدر القياسي الأصلي (وَعْظ)؛ زيادةً في التأكيد؛ لقوَّة دلالة المصدر الميمي على الحدث، وهو مجيءُ الموعظة التي هي القرآن الكريم وتأكيدها، ولذا كَثُر استخدام المصدر الميمي في الذكر الحكيم.

معنى حرفِ ﴿مِّن﴾:

ابتداءُ الموعظةِ من الرَّبِّ وانتهاؤها إلى قلب العبد

حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يحتمل معنيين:

الأول: ابتدائيَّة، إذا كانت متعلِّقة بـ﴿جَآءَتْكُم﴾، وهو الأليق بسياق الآيةِ، لاسيَّما في دلالتها على العموم، فهي موعظةٌ نازلةٌ ابتداءً من عند اللّه تعالى، انتهاءً إلى قلوبِكم، ففي هذا المعنى قيمةٌ هدائيَّة تربطُ بين العبد ومولاه.

الآخر: تبعيضيَّة؛ إذا كانت متعلِّقة بمحذوف وقع صفة لموعظة، والكلام على حذف مضاف أي: جاءتكم موعظةٌ من مواعظ ربِّكم[2]،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/155.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/131.

وجَعْلُ ﴿مِّن﴾ للتبعيض لا ينافي أنَّ القرآن كلَّه موعظة وشفاء وهدًى ورحمة؛ فالتبعيض في طريقة مجيء المواعظ والشفاء والهدى والرحمة؛ إذ القرآن لم ينزل دفعةً واحدة، وخاصَّة أنَّ الآية مكية.

وسواء كانت تبعيضيَّة أم ابتدائيَّة، فإنَّ فيها مزيدَ ترغيبٍ إلى التمسُّك بهذه الموعظة، فهي من الربِّ سبحانه[1].

بلاغةُ التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة وإضافته: ﴿رَّبِّكُمْ﴾:

الموعظةُ تربيةٌ ربّانيَّةٌ ورعايةٌ صمدانيَّةٌ وعنايةٌ رحمانيَّةٌ

في التعبير بالرُّبوبيَّة وإضافته إلى ضمير المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تعرضٌ لعنوان الرُّبوبيَّة، وهو حَسَنُ الموقع هنا؛ ففيه تبيينٌ لوجوب الاتِّعاظ بها إيمانًا وتسليمًا؛ لأنَّها من مالك أمر النّاس، ومربّيهم بفضله ورحمته، وعلمه وحكمته[2]، ولذا خصَّها في الآية بأنَّها من الرَّبِّ، لا من الإله؛ لأنَّ الإله يريدك عابدًا، لكنَّ الرَّبَّ هو المربّي والكفيل لك، وإنْ كفرتَ به[3]، وفي هذا تلطُّفٌ في الخطاب، لاستمالتهم نحو الحقِّ، واستنزالهم إلى قبوله، وأنَّ جميع ذلك مسوق لمصالحهم.

إذًا: فالموعظة هي نوع من التربية جاءت من ربِّكم المربّي لكم؛ لأنَّه هو الذي خلق من عَدَم، وأمدَّ من عُدْم، ولم يختصَّ بنعمة الرُّبوبيَّة المؤمنين فقط، بل شملتْ نعمته كلَّ الخلق، فالموعظة تجيء ممَّن يعطي، ولا ينتظر منك شيئًا، فهو سبحانه منزَّه عن الغرض؛ لأنَّه لن ينالَ شيئًا منك، فأنت لا تقدر على شيء مع قدرته سبحانه[4].

العطفُ بالواو وسرُّ ترتيب المعطوفات:

الموعظةُ والشِّفاء توطئةٌ للهدى والرحمة

هذه الأوصاف الأربعة (الموعظة والشفاء والهدى والرحمة) كلُّها شيءٌ واحد، وهو القرآن، وقد نزلت لتغايرها وصفًا منزلة تغاير الذوات، فساغ العطف بالواو، كما شهر أنَّ العطف يقتضي التغاير غالبًا.

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/495.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/328.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6000.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6000.

ويكمنُ سرُّ ترتيب المعطوفات في قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في أمرين:

أحدهما: أنَّ ذلك من باب تقديم العام، وهو خطاب النّاس كافَّة ﴿مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ على الخاصِّ، وهو خطاب المؤمنين ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

الآخر: أنَّ بينها تلازمًا في الجملة؛ إذ هي أوصافٌ للقرآن الكريم باعتبار كونه سببًا وآلة وأثرًا لها، فالقرآن سببٌ للاتِّعاظ والشفاء والهداية والرحمة.

والبدء بالموعظة القادمة بالمنهج من الرَّبِّ سبحانه لكونها وصيَّة بالخير فيها عيون الحكمة مع تخويفٍ وترقيقٍ يحملان على الامتثال تخصُّ العقلاء الراشدين، وحركة العاقل الراشد تمرُّ على عقله أوَّلًا ليختار بين البدائل، ثمَّ أَتْبَعَ بالشِّفاء لِما في الصدور لأهمّيَّته؛ ذلك أنَّ الهوى الذي يَنشأ ممّا في النَّفس والقلب يُفسد حركة اختيار العاقل الذي تخاطبه هذه الموعظة، أي: إنَّه سبحانه قد أنزل عليكم ما يشفي صدوركم من غلٍّ يؤثِّر في أحكامكم، وحقد، وحسد، ومكر، وينقّي باطن الإنسان؛ لأنَّ أيَّ حركة من حركات الإنسان لها نبعٌ وجدانيٌّ، ولا بدَّ أن يُشفى النَّبعُ الوجداني، ويصحَّ حتى تخرج الحركات من الجوارح نابعةً من وجدانٍ طاهرٍ مصفًّى وسليمٍ؛ وبذلك تكون الحركات الصادرة من الإنسان سليمة، إذًا: موعظةُ القرآن تُعالج جذور المرض قبل ظواهره.

ثمّ أتبعَ الشفاء لِما في الصدور بالهدى؛ لكونِ الوجدان الطاهر السليم سببًا لاتِّباع طُرُقِ الهداية والرشد، وهذا كلُّه سببٌ للتحقُّق برحمة الله الَّتي جعلها للمؤمنين الذين انتفعوا بالموعظة والشفاء والهداية[1].

بلاغةُ ذكرِ قيدِ ﴿مِن رَّبِّكُمۡ﴾ مع الموعظة:

قيَّد البيان الإلهيُّ ﴿مَّوۡعِظَةٌ﴾ بقيدِ ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾؛ لأمور: منها: تنبيهٌ على أنَّ هذه الموعظة بالغةٌ غايةَ كمالِ أمثالها[2]، وتذكيرٌ بما يزيدها تعظيمًا؛ فالموعظةُ من أحدٍ ما يمكن أن تسمعها، أو ترفضها، ولكن لَمّا تكون الموعظة قادمةً من الرَّبِّ سبحانه؛ فهذا

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6001.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/201.

أدعى إلى تعظيمها، والاستماع إليها، والعمل بها ممَّنْ له عقل، فهي من كمالات التربية.

القرآنُ موعظةٌ بلغتْ غايةَ الكمالِ وهي عامَّةٌ حتى لمنْ لم يتَّعظْ بها

ولتكون الموعظةُ عامَّةً لمنْ خوطب بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ذلك أنَّ كون القرآن موعظةً وصفٌ ذاتيٌّ له؛ لأنَّ الموعظة هي الكلام المحذِّر من الضَّرِّ، أي: القرآن موعظةٌ حتى لمنْ لم يتَّعظْ بها[1].

الغرضُ من التَّعبير بالاستعارةِ في ﴿وَشِفَآءٌ﴾:

شفاءُ القرآنِ هو شفاءٌ تامٌّ متكاملٌ لا وَصَبَ فيه ولا ألم

الاستعارةُ في استعمال لفظِ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ؛ إذ إنَّ البيانَ الإلهيَّ شبَّه في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ إبطاله العقائد الضالَّة بالشفاء من المضارِّ فحذف (المشبَّه)، وصرَّح بـ (المشبه به) وهو الشفاء، بجامع أنَّ كلًّا مزيلٌ للضَّرر، وفي هذه الاستعارة مبالغةٌ في إبرازِ أثرِ القرآنِ في إصلاحِ النُّفوس والمجتمعات من أمراضها.

الغرضُ من الاستعارةِ التَّمثيليَّة:

جاءَ القرآنُ لشفاءِ الأمراضِ السَّقيمةِ وتثبيت الأدوية القويمةِ رحمةً بالأمَّةِ الحكيمة

يبيِّن ابن عاشور أثر وصف القرآن بهذا اللَّفظ المستعار ﴿وَشِفَآءٌ﴾ وعلاقته ببقيَّة الألفاظ المستعارة في الآية ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾، ﴿وَهُدًى﴾، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأنَّ هذا الوصف يومئ إلى تمثيل حالِ النفوس بالنسبة إلى القرآن، وإلى ما جاء به بحال المُعتلِّ السَّقيم الَّذي تَغيَّرَ نظامُ مزاجه عن حالة الاستقامة، فأصبح مُضْطربَ الأحوال خائرَ القوى، فهو يترقَّبُ الطبيب الذي يُدَبِّرُ له بالشفاء، ولا بدَّ للطبيب من موعظةٍ يحذِّر المريض بها ممّا هو سبب نشوء علَّته ودوامها، ثمَّ ينعتُ له الدواء الذي به شفاؤه، ثمَّ يصفُ له النِّظام الذي ينبغي له سلوكه لتدومَ له

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/203.

الصحَّة، فإنْ هو انتصحَ بنصائح الطبيب؛ أصبحَ معافًى سليمًا لا يَعْتَورُهُ ألمٌ، ولا يشتكي وَصَبًا.

وقد كان هذا التمثيل لكماله قابلًا لتفريق تَشبيهِ أجزاء الهيئة المُشَبَّهَةِ بأجزاء الهيئة المُشَبَّهِ بها، فزواجر القرآن ومواعظه يُشَبَّهُ بنصح الطبيب على وجه المكنيَّةِ؛ وإبطاله العقائد الضالَّة يُشَبَّهُ بنعت الدواء للشفاء من المضار على وجه التَّصريحية، وتعاليمه الدينيَّة وآدابه تُشَبَّهُ بقواعد حفظ الصحَّة على وجه المكنيَّةِ، وعبَّر عنها بالهدى، ورحمتُه للعالمين تُشَبَّهُ بالعيشِ في سلامةٍ على وجه المكنيَّةِ، ثمَّ إنَّ ذلك يتضمَّن تَشبيهَ شأنِ باعث القرآن بالطبيب العليم بالأدواء وأدويتها، ويقوم من ذلك تَشْبيهُ هيئة تَلَقِّي النّاس للقرآن وانتفاعهم به، ومعالجة الرسول ﷺ إيّاهم بتكرير النُّصحِ والإرشاد بهيئة المرضى بين يدي الطبيب، وهو يصفُ لهم ما فيه برؤهم، وصلاحُ أمزجتهم، فمنهم القابل المنتفع، ومنهم المتعاصي الممتنع[1].

نكتةُ التَّعبير بالمصدر ﴿وَشِفَآءٌ﴾:

لفظُ الشِّفاء مصدرُ قوله: شفاه اللّه من مرضه شفاءً، وقد عبَّر به البيان الإلهيُّ؛ للدَّلالة على المبالغة التي يقتضيها التعبير بالمصدريَّة، بحيث كأنَّه الشِّفاءُ كلُّه.

القرآن عينُ الشفاء لا أداته

بلاغةُ استعمال حرفِ الظَّرفيَّة: ﴿فِي﴾:

عبَّر القرآن بالظرفيَّة ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ دون أنْ يقول: (للصدور)؛ للإشارة إلى أنَّ هذه الأمراض القلبيَّة، والوساوس والشكوك منتشرةٌ في جميع أنحاءِ صدورهم ومنغمسة متغلغلة فيها، وأنَّ القرآنَ جاء شفاءً لتلك الأمراضِ، فإذا شُفيتِ الأمراضُ؛ عولجت الصُّدور، فإنَّ علاجَ الأسبابِ هو

تخليةُ الصُّدورِ من أمراضِها مقدَّمةٌ على تحليتِها بالإيمانِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/203.

أصلُ الشِّفاء، وفيه إشارةٌ إلى تخلية تلك الصُّدورِ من أمراضِها، قبل تحليتها بالإيمانِ.

دلالةُ التَّعريف في: ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

(أل) التعريف في كلمة ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ جنسيَّة استغراقيَّة، ومعلوم أنَّ الجمع المعرَّف بأل الجنسيَّة الاستغراقيَّة يفيد العموم[1]، والمعنى: شفاءٌ لجميع أسقام الصدور من النّاس جميعًا مؤمنين وغير مؤمنين، ومن جميع الأَمراض؛ أمراض القلب مثل: الأخلاق الذميمة، والعقائد الفاسدة، والجهالات المهلكة، وتعلُّقات القلوب بما سوى الله تعالى، أو غيرها من الوساوس، والشكوك، وكذا الأمراض البدنيَّة من الضيق وغيره.

القرآنُ شفاءٌ لجميعِ صدورِ النّاس من جميعِ الأمراضِ

فائدةُ تخصيصِ الصدورِ بالذكر: ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

خصَّ البيانُ القرآنيُّ الصَّدرَ بالذكر دون القلب فقال تعالى ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾؛ لأمور:

الأوَّل: أنَّه أعزُّ موضعٍ في بدنِ الإنسان لمكانِ القلب فيه[2].

الثّاني: أنَّه موضعُ القلبِ وغيره[3]، والتعبير به دون التعبير بالقلب أوسع دلالةً؛ لأنَّه يشمل القلب وغيره من الأعضاء الأخرى التي تشارك القلب في حصول ضيق الصدر، أو انشراحه، وكذا الأمراض البدنيَّة المتعلِّقة بالصدر[4]، إذ لو عبَّر بالقلب؛ لاقتصر على أمراض القلوب فقط، ولذلك كان من عادة القرآن أنَّه ينسبُ الشفاء للصدور لا للقلوب[5].

القرآنُ شفاءٌ عامٌّ تامٌّ لكلِّ ما في الصدور من جميع الأدواء القلبية والبدنية

الثّالث: أنَّه لم يردْ في القرآن نسبة مرض القلوب لعموم النّاس،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/203.
(2) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/448، والخطيب الشربيني، تفسير الشربيني: 2/25.
(3) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/448، والخطيب الشربيني، تفسير الشربيني: 2/25.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 6/35.
(5) مثلاً: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ [النّاس: 5]، ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ۝١٤﴾ [التوبة: 14].

وإنَّما لقلوب الكافرين والمنافقين، وعليه فقد عبَّر هنا بشفاء الصُّدور لا القلوب؛ مراعاةً لكون الخطاب لعموم النّاس لا للكافرين والمنافقين وفق القولِ الأقرب للصَّواب.

نكتةُ التَّعبير بالمصدر ﴿وَهُدًى﴾:

لعظمةِ أثرِ هدايةِ القرآن وُصف بأنَّه عينُ الهدى

عبَّر البيانُ الإلهيُّ عن أحدِ أصول كمال القرآن وخصائصه بالمصدر ﴿وَهُدًى﴾؛ للدَّلالة على المبالغة التي يقتضيها التَّعبير بالمصدرية، بحيث كأنَّه الهدى نفسه، ويكون بذلك المراد بهذا الوصف حصول الهدى به بالفعل[1].

ولأهمية هذا الوصف ﴿وَهُدًى﴾ ورد لفظه وما اشتق منه في (305) موضعًا في اثنتين وستين سورة من سور القرآن الكريم، ذكر فيها علماء الوجوه والنظائر ثمانية وعشرين وجهًا.

براعةُ العدولِ عن النّاس إلى المؤمنين في الفاصلةِ في: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾:

القرآنُ هدًى ورحمةٌ لمن اتَّعظَ بموعظتهِ واستشفى بدوائهِ لا لمن أعرض عنه وحاربه

عدلَ القرآن في فاصلة هذه الآية عن التَّعبير بـ(النّاس) مع أنَّ الخطاب ابتدأ في الآية بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، فلم يقلْ: (لكم، أو للناس، أو للعباد)؛ لأمورٍ:

الأوَّل: تعليق قوله تعالى: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بلا شبهة، وقد خصَّه به جمهور المفسِّرين، ومن المحقِّقين من جعلَهُ قيدًا لـ (هدى ورحمة) ناظرًا إلى قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 2]، فإنَّه لم يجعلْهُ هدًى لغير المتَّقين، والمتَّقون هم المؤمنون[2]، وهو الأظهر عند ابن عاشور حيث قال: "فالأظهر أنَّ قَيْد ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ راجعٌ إلى ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ معًا على قاعدة القيْد الوارد بعد مفردات"[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/202.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/203.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/202.

الثّاني: الإدماجُ في التقييد بالمؤمنين، وهذا لم يكنْ ليتحقَّق لو كان التعبير بـ (النّاس أو لكم أو العباد) التي تدلُّ على عموم الخطاب، أي: إنَّ المشركين حَرموا أنفسهم الانتفاعَ بموعظة القرآن التي انتفعَ بها المؤمنون[1].

الثالث: مراعاة فواصل السورة الكريمة التي انتهتْ معظمها بالواو والنون أوبالياء والنون، بما يحقِّق إحكامًا في اللفظ والمعنى لهذه الفواصل، من خلال الأثر الصوتي لحروف المدِّ الليِّنة الهوائيَّة التي تتناسب مع سياق الموعظة التي تحمل رقَّةً وتأثيرًا في نفوس المخاطبين.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الموعظةُ والهدايةُ:

الموعظة والهداية كلاهما يشتركان في معنى النُّصح وإرادة الخير بالطرف الآخر، إلا أنَّ هناك فرقًا بينهما، ويظهر ذلك من خلال الرجوع إلى المعنى اللغوي، وإلى الاستعمال القرآنيِّ لكلٍّ منهما:

الموعظةُ مقترنةٌ بزجرٍ وتخويفٍ من سوء العاقبة، والهدايةُ بيانٌ ودلالةٌ بلطف

فالموعظة في اللغة: التخويف والنُّصح والتَّذكيرُ بالعواقب[2]، وقيل: زجْرٌ مقترن بتخويف[3]، وكأنَّ الواعظ يذكِّر وينبِّه غيره إلى عواقب ما يفعله، أو ما هو مُقدم عليه ليتوقَّف عنه، ويظهر، وكأنَّ الوعظ خاصٌّ بالزجر عمّا له عواقب سيِّئة، ثمَّ عُمِّم في الحضِّ على ما له ثواب[4].

أمّا الهدايةُ؛ فهي: الإرشاد والدِّلالة بلطف إلى ما يوصل إلى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/200 - 201.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (وعظ).
(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (وعظ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وعظ).

المطلوب، هَداهُ الطريق: أرشده وعرَّفه، وهَداهُ لهُ: دلَّه عليه، وبيَّنه له، فالهُدى: البيان، وهو ضدُّ الضلال[1]، والهدى والهداية في اللُّغة واحد، لكن قد خصَّ الله لفظة الهدى بما تولّاه، وأعطاه، واختصَّ هو به دون ما هو إلى الإنسان، نحو قوله: ﴿هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 2]، والاهتداء يختصُّ بما يتحرّاه الإنسان على طريق الاختيار، إمّا في الأمور الدنيويَّة، أو الأخرويَّة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا﴾ [الأنعام: 97][2].

إذًا: تتميَّز الموعظة بالزَّجر المقترن بالتخويف، والتذكير من سوء عاقبة ما هو مُقدِم عليه ليتوقَّف عنه، بينما تتميَّز الهداية: بالإرشاد والبيان، والدَّلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب، وإلى الغاية المرجوَّة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (هدى).
(2) الراغب، المفردات، ص: 839.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»